الهلال

مجلة الفكر العربى

صلى الله عليه وسلم . صلى الله عليه وسلم . صلى الله عليه وسلم . صلى الله عليه وسلم . صلى الله عليه وسلم

محمد

رؤية جديدة

توفيق الحكيم — د. زكى نجيب محمود — د. بنت الشاطئ
أنيس منصور — يوسف السباعى — خالد محمد خالد
د. عبد العزيز بن عبد الله — محمد عبد الغنى حسن — د. محمود على مكى

الإمام الأكبر د. عبد الحليم محمود — فضيلة الشيخ متولى الشعراوى

د. طه حسين — عباس محمود العقاد — د. أحمد أمين
على عبد الرازق — امين الخولى — د. زكى مبارك

محمد بن اسحاق — محمد بن عمر الواقدى
محمد بن جرير الطبرى — ابن حزم الأندلسى

استطلاعات ... فى أثر



كلمة المحرر ٢
محمد ... رؤية جديدة ... ...بقلم رئيس التحرير ٦
من وحى السيرة المحمدية ... ... فضيلة الشيخ متولى الشعراوى ١٦
محمد الانسان الكامل ... ... الامام الاكبر د. عبد الحليم محمود ١٨
دفاع عن محمد ... ... توفيق الحكيم ٢٠
رسالة محمد ... ... د. زكى نجيب محمود ٢٦
طلع البدر على ... ... انيس منصور ٢٨
محمد سيد الهداة ((قصيدة)) ... ... محمود المتريس ٣٤

● استطلاعان بالالوان ●

الحرمان المكى والمدنى ... ... بقلم د. حسين مؤنس ٣٥
مع الرسول الاعظم فى عالمه الرحيب ... ... ح . م ١١٤

آية الهجرة ... ... امين الخولى ٥١
مع محمد ... ضد الكلب والعجز والالم ... ... خالد محمد خالد ٥٢
من احاديث الرسول ٥٥
محمد انسانا ... ... د . عائشة عبد الرحمن ٥٦
باب الرسول ... ((قصيدة)) ... ... د. مختار الوكيل ٥٨
رسول الحب والرحمة ... ... يوسف السباعى ٦٠
من حديث محمد ٦٣
سيرة محمد فى الأدب الحديث ... ... محمد عبد الغنى حسن ٦٤
السيرة النبوية فى مواجهة تحديات العصر ... ... انور الجندى ٧٠
الغنية من نبع محمد صلى الله عليه وسلم ... ((قصيدة)) محمد كمال امام ٧٣
خصوم رسالة محمد ... ... د. محمد عبد المنعم خفاجى ٧٤

الهلال
مجلة الفكر العربى

شعبان ١٣٩٨ هـ
أغسطس ١٩٧٨ م

مجلة شهرية تصدر عن دار الهلال
- أسسها جرجى زيدان سنة ١٨٩٢
- السنة السادسة والثمانون -
أول أغسطس ١٩٧٨ - ٢٧ من
شعبان ١٣٩٨

قطوف من مأثور محمد ... فاروق شوشه ٨٠
ملامح محمد وصفاته ... فى حديث ام معبد ... د. محمد عبد المنعم خاطر ٨٢
البادرات الخلاقة لمحمد ... عبد العزيز بنعبد الله ٨٤
مجاهدون فى سبيل الاسلام ... د. احمد الشرباصى ٨٨
محمد فى ايامه الاخيرة ... د. مصطفى الديوانى ٩٢
سيرة الرسول عند كتاب الغرب ... محمد الحديدى ٩٦
مسابقة العدد ... ٩٨
من أخلاق محمد ... « قصيدة » ... عبد العليم القبانى ١٠٠
السيرة النبوية فى التراث الاندلسى ... د. محمود على مكى ١٠٢
الطب النبوى عالج الابدان وشفى الارواح ... د. السيد الجميلى ١١٠
من حديث محمد ... ١٣١
محمد وخديجة ... د. طه حسين ١٣٢
رجال محمد ... د. احمد امين ١٣٤
من انسانيات محمد ... د. زكى مبارك ١٣٧
صفحات خالدة من كتب السيرة ... اعداد : عادل عبد الصمد ١٣٨
الغرب يقرأ مسرحية محمد لتوفيق الحكيم ... ماهر شفيق فريد ١٤٤
محمد والدعوة الى شعر اسلامى ... د. صلاح عدس ١٤٥
محمد الداعية الى العلم ... عادل القمرى ١٤٦
محمد مشرق النور ... « قصيدة » ... مصطفى عبد الرحمن ١٤٧
عظمة محمد ... د. حامد حسان ١٤٨
محمد القائد ... محمد مختار عيد ١٥٠
صدقت الاولى والثانية ... « قصة » ... حسين عيد مادى ١٥١
محمد بشرا ... مرحا ... محمد الخضرى عبد الحميد ١٥٢
قبس من حديث محمد ... علاء الدين زيدان ١٥٤
فى مولد الرسول ... « قصيدة » ... فؤاد بدوى ١٥٥
زهرات من رياض محمد ... اعداد : محسن فهمى ١٥٦
معجزة محمد ... « قصيدة » ... تاج الدين سلامه نوفل ١٥٧
الناس والعصر « ٦ » ... ألقى الله على كلام المحبة ...
... نصر الدين عبد اللطيف ١٥٨

الغلاف الأول

وضعنا غلاف هذا العدد على نحو يتناسب مع موضوعه وهو السيرة النبوية الكريمة ، وقدم الفنان الخطاط عبد المنعم الشريف هذه اللوحة البديعة للغلاف

ثمن العدد : فى جمهورية مصر العربية ١٥٠ مليما
قيمة الاشتراك السنوى : « ١٢ » عددا فى جمهورية مصر العربية وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٥٠ قرشا صاغا . فى سائر انحاء العالم ٦ دولارات او ٥ر٢ جنيه والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال . فى جمهورية مصر العربية والسودان بحوالة بريدية . فى الخارج بشيك مصرفى والاسعار الموضحة بالبريد العادى . وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل على الاسعار المحددة عند الطلب
الادارة : دار الهلال ـ ١٦ شارع محمد عز العرب القاهرة
تليفون : ٢٠٦١٠ « عشرة خطوط »

السيرة النبوية في التراث الأندلسي

لم يبعد الاديب ابن سعيد المغربي عن الحق عندما قال مفتخــرا باهل بلــده الاندلس : « واما حال اهــل الاندلس في فنون العلم فتحقيق الانصاف في شانهم في هذا الباب انهم احرص الناس على التميز ... وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء » .

واذا كان ابن سعيد على حق في تنويهه بحظ الاندلسيين من جميع العلوم ، فانه كان على حق ايضا حينما خص بعد ذلك من هذه العلوم علم التاريخ والسير والاخبار ، اذ يقول : « وعلم الادب المنثور من حفظ التاريخ والنظم والنثر ومستطرفات الحكايات انبل علم عندهم ، وبه يتقرب من مجالس ملوكهم واعلامهم » .

ونحن نرى بالفعل أن عنــاية الاندلسيين بالتاريخ وما يتصل به من معارف قد بدأت منذ أن اصبحت الاندلس جزءا من عالم الاسلام بعد فتح العرب لهذه البلاد في سنة ٩٢ هـ . وكانت هذه المعارف من العناصر التي تتالف منهــا « ثقافة » المسلم العامة . فالاسلام لم يكن مجرد مجموعة من العبادات ، وانما كان نظاما متكاملا للحياة ، وهو نظام تحتل فيه « المعرفة » او ما نسميه اليوم بالثقــافة الركيزة الاولى التي يقوم عليها بناء الانسان والمجتمع كله .

وقد كان من الطبيعي ان تســتأثر المعــارف الدينية ــ ولا ســيما ما يتعلق منها بالتشريع او الفقه ــ بعناية الاندلســيين في السنوات الاولى من حياة بلادهم في ظل الاسلام . وكانت ابصارهم تتوجه دائما الى مراكز الثقافة الاسلامية في الشرق ينهلون من مواردها ، ويترسمون خطى اهلها من اجل تنظيم حياتهم الاجتماعية ، وحل ما يواجه مجتمعهم الجديد من مشكلات . وقد اختار الاندلسيون منذ أواخر القرن الثــاني الهجري مذهب الامام مالك ، فاتخذوا « موطاه » دستورا يقيمون على اساسه حياتهم الجديدة ، واصبح الاهتمام بكتاب امام دار الهجرة وبشروح تلاميذه المدنيين والمصريين نواة لحركة فقهية واسعة خصبة اتت أكلها في الاندلس خلال القرون التالية على نحو جدير بالاعجاب .

ولما كان « الموطأ » مجموعة من القــواعد الفقهية المستنبطة من عمل فقهاء اهل المدينة والاجيال السابقة عليهم ممن تنتهي ممارساتهم التشريعية الى عصر الرسول «عليه الصلاة والسلام» والى صحابته (رضي الله عنهم) ــ فقد ادى ذلك بالاندلسيين الى الرغبــة في تتبع حياة الرسول الكريم ومعرفة سيرته ثم سير من التف به من صحابته . ولهذا لقد رأينا أن بداية عنايتهم بالسيرة النبوية الشريفة كانت مرتبطة بالمعارف الفقهية ، ولم يكن غريبا ــ والامر كذلك ــ أن نرى كبــار الفقهاء المالكيين هم أول من كتبوا في السيرة النبوية .

عبد الملك بن حبيب الالبيرى

وأول نموذج تقدمه الثقافة الاندلسية لكتابة السيرة النبوية هو الفقيه عبد الملك بن حبيب الالبيري (١٨٥ ــ ٢٣٨ هـ .) . وكان ابن حبيب يعد في عصره « عالم الاندلس » ، وهو بالفعل يقدم الصــورة المثلى للرجل المثقف في هذه الفترة البكرة من حياة الاندلس (ولنتذكر انه ولد قبل انقضاء قرن واحد على فتح المسلمين لهذه البلاد) . وكان قد درس في بلده على ذلك الجيل الاول من تلاميــذ الامام مالك الاندلسيين ، ثم رحل الى المشرق في سنة ٢٠٨ فدرس بمصر ، ولكن اكثر اخذه كان من علماء المدينة من اصحاب امامها الكبير ، وعاد بعد سنوات الى الاندلس واستقر في قرطبة حيث باشر نشاطا علميا عظيما .

ويذكر عنه انه كان يخرج من المسجد الجامع وخلفه نحــو من ثلاثمائة طالب حديث وفقه وفرائض واعراب ، كما انه اشتغل بالتاليف فبلغ عدد مؤلفاته اكثر من الف كتــاب تتناول كل جوانب الثقافة الاسلامية .

ومن اشهر كتبه « الواضحة » ، وهو مؤلف اصبح من اجل امهات الفقه المالكي في الاندلس



والشمال الافريقي على السواء . ولابن حبيب كذلك كتب في اللغة والنحو وتفسير غريب القرآن والحديث ، ويذكر المترجمون له أنه تحامل في هذه الكتب على الاصمعي وابي عبيدة وابي عبيد القاسم بن سلام وغرى بتخطئتهم ، وان كان قد تبين بعد ذلك ان ابن حبيب نفسه كان هو المخطىء في اكثر ما رده على هؤلاء العلماء . ومثل هذا يمكن أن يقال عن روايته للاحاديث النبوية ، فقد تبين للاجيال التالية من علماء الاندلس انه لم يكن على بصر برواية الحديث ولا معـــــرفة بصحيحه من معتله ، مما جعلهم يتوقفون عن أحاديثه حتى أن ابن حزم يتهمه بان « احاديثه كلها هالكة » .

اما السيرة النبوية فانه لم يصلنا فيها كتاب مفرد لابن حبيب ، وان كنا نعرف انه قد تناولها على نحو مفصل ، كما نعرف انه افرد كتبا لمغازي الرسول «عليه الصلاة والسلام» والخلفاء الراشدين من بعده . غير انه وصلت الى أيدينا فصول كثيرة كتبها حول هذا الموضوع في ثنايا « تاريخه » الكبير الذي احتفظت المـــــكتبة البودليانية باكسفورد منه بنسخة مخطوطة وحيدة (تحت رقم ١٢٧) .

وقد تبين لنا من فحص هذه المخطوطة انها ليست الا سماعا مختصرا من احد تلاميذه ، وان كتاب ابن حبيب الاصلي لابد ان يكون اكبر بكثير من هذا المخطوط الذي سلم لنا من يد الزمن . ويظهر ان ابن حبيب اراد ان يجعل كتابه تاريخا « كونيا » عاما ، فقد بداه بخلق العالم وتحدث عن قصص الانبياء وسيرهم حتى مبعث خاتمهم محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ثم واصل الحديث عن الخلفـــــاء الراشدين وعمن تبعهم من خلفاء بني امية ، وختمه بفصول اختص بهـــــا فتح الاندلس وبمجموعة من الاحاديث مما يدخل في باب « الفتن والملاحم » وما يكون في العالم حتى آخر الزمان .

وقد كان اعتماد ابن حبيب في الفصــــول الخاصة بالسيرة النبوية وباخبار الخلفــــاء الاولين ومغازيهم على محمد بن عمر الواقدي من طريق تلميذه واستاذ ابن حبيب : ابراهيم بن المنذر الحزامي المدني ، وكذلك على محمد بن اسحاق صاحب السيرة وعلى مهذبها عبد الملك بن هشام .

ونحن نرى من العرض السريع الذي اوردناه لمواد كتاب ابن حبيب الى اى حد بلغ طمـــوح هـــذا الفقيه في مثل هذه الفترة المبكرة من تاريخ الاندلس الاسلامي ، اذ اراد ان يقدم لنا موسوعة تاريخية ادبية بمعنى الكلمة ، غير ان وسائل ابن حبيب قصرت به عن بلوغ هذه الغاية النبيلة ، اذ أن معارف هذا الفقيه ومنهجه في التاليف لم تعنه الا على مجرد محـــــاولة متواضعة النتائج ، تظهر فيهـــــا الفجاجة والنقص .

ومع ذلك فان قيمة كتابه العظمى كانت في توجيه انظار مواطنيه الاندلسيين الى الاهتمام بالسيرة النبوية وتتبع اخبارها عن المحـــدثين والمؤرخين الثقات في المشرق . فالانصاف يقتضينا أن نعترف لابن حبيب بانه صاحب هذه البذرة الاولى في عناية الاندلسيين « العلمية » بهـــذا الموضوع حتى قدرت لهم فيه بعد ذلك درجة عالية من التميز والاجادة .

كتب السيرة المشرقية وروايتها في الاندلس

ونحن نرى بالفعل ان الاندلسيين منذ منتصف القرن الثاني الهجري يقبلون على رواية كتب الرعيل الاول من المؤلفين المشارقة حول السيرة النبوية . وعلى رأس هذه الكتب « مغازي » موسى بن عقبة الاســـــدي المدني (ت ١٤١) و « سيرة » محمد بن اسحاق المطلبي المدني (ت ١٥٠) وتهذيب هذه السيرة لعبد الملك بن هشام (ت ٢١٨) و « مغازي » الواقدي (ت٢٠٧) و « مغازي » عبد الرزاق بن همام الصنعاني (ت ٢١١) و « تاريخ » خليفة بن خياط البصري (ت ٢٤٠) .

وكان أروج هذه الكتب خلال القرنين الثالث والرابع كتاب ابن هشام الذى هذب به سيرة ابن اسحاق ، وكانوا يطلقون عليه في الاندلس اسم « المشاهد » ' ومن رواته بقرطبة محمد بن يزيد بن رفاعة الالبيرى (ت ٣٤٤) وأبو عيسى يحيى بن عبد الله الليثى القرطبى (ت ٣٦٧) الذى كان كذلك راوية لكتب ابن حبيب. وكان مجلسه حينما يقرىء « مشاهد » ابن هشام من اكثر مجالس العلماء اكتظاظا بالطلبة ورحل اليه الناس من كل كور الاندلس وأنحائها . ويذكر المترجمون لابى عيسى أنه كان من شهود مجلسه خليفة الاندلس نفسه هشام المؤيد بن الحكم . وربما كان اقبال الناس على هذا الكتاب هو الذى حمل العالم القرطبى على تأليف كتاب اختصر فيه سيرة ابن هشام .

كذلك كان لتاريخ خليفة بن خياط البصرى رواج عظيم في الاندلس . ومما يذكر أن هذا التاريخ الذى اختص السيرة النبوية بجانب كبير من أوله هو أول تاريخ اسلامى وصل الينا على طريقة « الحوليات » أى مرتبا على السنين ، وهو المنهج الذى اتبعه بعد ذلك محمد بن جرير الطبرى وأصبح هو الغالب على كتب التاريخ منذ ذلك الوقت ، وقد اعتنى بتاريخ خليفة بن خياط عدد من تلاميذ ابن حبيب الاندلسيين على رأسهم المحدث الكبير بقى بن مخلد القرطبى (ت ٢٧٦) ، فهو الذى يرجع اليه الفضل في رواية الكتاب ونشره .

وربما دلنا على مدى اهتمام الاندلسيين بكتب السيرة أو المشاهد ما يذكره بعض مؤرخى الاندلس من أن امير هذه البلاد عبد الرحمن بن الحكم الاوسط قد حكى عنه أنه اختلف مع أحد جلسائه في حديث من بعض المشاهد (أى أحداث السيرة) « فلما تلاحيا (أى تنازعا) فيه قال : « سمع كتب المشاهد حفظا » فقرأها ظاهرا » . فاذا كانت العناية بالسيرة قد بلغت الى حد أن الامير الاندلسى (المتوفى سنة ٢٣٨) كان يحفظها ظاهرا فلنا أن نتصور مدى اقبال العلماء والمشتغلين بالحديث والتاريخ على دراستها والانقطاع لها . ويكفى أن نذكر ان النسخة الوحيدة المخطوطة من سيرة ابن اسحاق في العالم كله هى التى عثر عليها مؤخرا في المغرب العربى ، وهى برواية اندلسية ، وأن النسخة الوحيدة أيضا من مخطوطة تاريخ خليفة بن خياط انما هى برواية تلميذه الاندلسى بقى بن مخلد ، وقد عثر عليها في المغرب كذلك ونشرت منذ سنوات قليلة .

السيرة النبوية بين الفقهاء والمحدثين

وقد ارتبطت هذه العناية المتزايدة من جانب الاندلسيين بكتب السيرة النبوية بتطور له دلالته في نمو الفكر الدينى في هذه البلاد. ذلك ان أول ما شغل أهل الاندلس في حياتهم الدينية كان علم الفقه والفقه المالكى بوجه خاص ، ولكنهم لم يوجهوا عنايتهم الى علم الحديث وما يتصل به من تمييز صحيحه من معتلة والتعرف على رجاله وحملته ، وهو علم أدرك في المشرق ولا سيما في العراق نضجا سريعا أوفى به على الغاية من دقة المنهج النقدى العلمى منذ أوائل القرن الثالث الهجرى . ولم يشرف هذا القرن على نهايته حتى رأينا عددا من جلة المحدثين يجمعون مسانيدهم الكبرى التى أصبحت دعائم للفكر الدينى الاسلامى ، من أمثال البخارى ومسلم والترمذى وابن حنبل وابن ماجه وأبى داود وابن أبى شيبة وغيرهم .

وكان الاندلسيون بمعزل من هذا العلم خلال النصف الاول من القرن الثالث حتى اننا نرى عبارة تتكرر فى تراجم كبار فقهاء المالكية مثل عبد الملك بن حبيب : « لا علم له بالحديث » أو « وكان لا يميز بين صحيح الحديث ومعتله » وما الى ذلك .

غير انه لم يلبث ان ظهر في الاندلس منذ اواسط القرن الثالث عدد من الدارسين تنبهوا الى هذا النقص في ثقافة بلادهم الدينية ، فحاولوا ان يتداركوه ، واقبلوا على علم الحديث يحملون من كبار رواته ولا سيما في العراق ، ويأخذون انفسهم بالدربة على نقده وتمييز صحيحه ومعرفة رجاله ونقلته ، بل انهم شاركوا بعد ذلك في تأليف مسانيد ومصنفات للحديث سرعان ما ارتفعت بهم الى مصاف جلة المحدثين في الشرق . وكان الفضل في هذه النهضة لعلم الحديث في الاندلس يرجع الى عالمين من قرطبة هما بقى بن مخلد (ت ٢٧٦) ومحمد بن وضاح (ت ٢٨٧) وعنهما يقول مؤرخ الاندلس ابن حيان القرطبى : « فاستوسع اهل الاندلس في الحديث من يومئذ » وصارت دار حديث ومعدن سند ، وانما كان الغالب على اهلها من قبل ذلك راى مالك واصحابه والتفقه في المسائل المدونية (نسبة الى مدونة سحنون القيروانى في الفقه المالكي) فكانوا يتعصبون لاهل الحديث (اى يعادونهم) ولا يرضونهم » .

وقد ادى ذلك الى تطور في فهم دلالة السيرة النبوية والى منهج آخر في دراستها يتسم بقدر اكبر بكثير من الدقة والمنهجية العلمية وارهاف الحاسة النقدية مما كان عليه الامر من قبل لدى عبد الملك بن حبيب ، وخاصة بعد أن نشأ جيل جديد من تلاميذ بقى بن مخلد ومحمد بن وضاح يرى أن التعرف على سيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) يقتضى جهدا مضنيا من التوسع في المصادر والتردد على مجالس كبار المحدثين في الشرق والاستخدام لمنهجهم العلمى في جمع الحديث ونقده وتمييز صحيحه والاحتكام الى القواعد التى وضعها أهل « الجرح والتعديل » والعلم الواسع بحملة الحديث ورجاله ، ثم الاسهام في كتابة السيرة النبوية بعد الاخذ بكل هذه الاسباب ، والتوسع بعد ذلك فى معرفة الصحابة وسيرهم .

وقد استغرق هذا العمل القرن الرابع كله ، وهى الحقبة التى بلغت فيها الثقافة الاندلسية — فى ظل خلفاء بنى امية — أوج نضجها واكتمالها ، وان كانت ثمرات هذا الجهد سوف تظهر بعد ذلك فى القرن الخامس الهجرى وما يليه كما سوف نرى .

على انه مما يستحق التسجيل هنا ان هذا الاهتمام الخصب المتنوع من جانب الاندلسيين بالسيرة النبوية الشريفة قد اتخذ منذ القرن الخامس مسالك ثلاثة بينها بعض التداخل والتشابك وان امكن التمييز بين بعضها والبعض:

الاول اتجاه علمي نقدي .
والثاني اتجاه وجداني .
والثالث اتجاه روحي صوفي .

١ ـ الاتجاه العلمي النقدي

وهو الذي كان ثمرة كل تلك الجهود العلمية التي استغرقت القرن الرابع ، وقد انتج لنا هذا الاتجاه بعض التآليف الاندلسية التي يتمثل فيها ما ادركته ثقافة هذه البلاد الاسلامية من تقدم كبير منذ كتاب ابن حبيب ، فقد اتسمت بالتزام المنهج العلمي الدقيق ، واتضحت فيها معالم الشخصية الاندلسية ، ومكنتها هذه الصفات من أن تصبح مصادر لا غنى عنها للدارسين لا في الاندلس وحدها ، بل وفي بلاد الشرق أيضا . وهكذا نرى الاندلسيين الذين بدأوا بالتلمذة على علماء المشرق لا يلبثون أن يردوا ـ من سمة ـ دين هؤلاء العلماء ، بل ويتبوأوا منهم مكان الاساتذة والشيوخ . ويكفي أن نضرب المثل هنا بعالمين كبيرين من علماء السيرة أزدان القرن الخامس بجهودهما الجبارة الرائعة .

ابن حزم وابن عبد البر

وقد جمعنا بين هذين العالمين القرطبيين لانهما كانا متعاصرين ولما جمع بينهما من أواصر متينة من الزمالة والصداقة وتقارب الاتجاه العلمي .

اما الامام أبو محمد علي بن احمد بن سعيد بن حزم (عاش بين سنتي ٣٨٣ و ٤٥٦) فهو أشهر من أن نترجم له ، فقد ظفر من عناية العلماء به في القديم والحديث وفي الشرق والغرب بما يغني عن الحديث المعاد حوله . ومؤلفاته الكثيرة تحيط بكل علوم الاسلام ، على أننا سوف نقف عند تأليفه في السيرة النبوية ، وهو رسالة طويلة بعنوان « جوامع السيرة » .

وقد وقف على نشرها مع مجموعة أخرى من رسائله الاستاذان الدكتوران احسان عباس والدكتور ناصر الدين الاسد (دار المعارف سنة ١٩٥٦) وقد اتت السيرة التي كتبها ابن حزم هنا خاضعة لمنهجه في نقد الحديث ، فجاءت مجردة من الاشعار والقصص ، محررة في ضوء المذهب الظاهري الذي كان ابن حزم يدين به وينتصر له .

وأما أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري (عاش بين ٣٦٨ و ٤٦٣) فقد كان مثل صديقه ابن حزم تجردا للعلم والساعا في وجوه المعارف ، على أنه يختلف عن ابن حزم في كونه فقيها لم يخرج على مذهب مالك وان كان مثل صاحبه تفتحا وكراهية للتقليد ومعرفة بالحديث وأسانيده وعلله ورجاله . وقد طارت شهرته في هذا الميدان حتى أن من ترجموا له يعدونه « حافظ المغرب » ويقرنونه بالخطيب البغدادي (المتوفى أيضا في سنة ٤٦٣) « حافظ المشرق » .

وقد اختص ابن عبد البر السيرة النبوية بمؤلف جليل هو « الدرر في اختصار المغازي والسير » الذي وقف على نشره استاذنا الفاضل الدكتور شوقي ضيف في سنة ١٣٨٦ (١٩٦٦). وقد ذكر ابن عبد البر انه اعتمد في هذا المختصر على كتب من سبقوه مثل سيرة موسى بن عقبة وسيرة ابن اسحاق ومغازي الواقدي وتاريخ ابن أبي خيثمة . وكان ابتداؤه لكتابه منذ مبعث الرسول (صلى الله عليه وسلم) حتى وفاته ، فلم يتحدث عن مولده عليه السلام ولا نشأته وغير ذلك من اخباره ، وذلك لانه احال في هذه الموضوعات على كتابه الاخر الكبير « الاستيعاب في معرفة الاصحاب » الذي افرده بعد هذه المقدمات لتراجم الصحابة رضي الله عنهم . فالكتابان معا يقدمان سيرة كاملة للرسول الكريم ، ولو انها مختصرة مجردة من الشعر والاخبار .

ويظهر التشابه بين منهجي ابن حزم وابن عبد البر في كتابة السيرة ، فكلاهما عالم ملتزم بالمنهج النقدي الصارم لاصحاب الحديث . وقد أدى هذا التشابه الى اعتقاد الاستاذ شوقي ضيف بان ابن حزم قد نقل عن صاحبه اكثر صحف كتابه « حتى ليظن من لم يقرا ابن عبد البر انها ثمرة اجتهاده » .

على اننا نرى أن ابن حزم كان اكثر ورعا وامانة ورعاية لحقوق الله والعلم من أن يظن به السطو على كتاب صاحبه وصديقه الذي طالما احسن الثناء عليه في كتبه . وتفسير هذا التشابه الظاهر بين الكتابين في نظرنا هو ان الرجلين سلكا في تاليفهما نهجا متقاربا يقوم على جمع الاحاديث الخاصة بالسيرة . فاذا قدرنا أنهما اشتركا في التلمذة على جيل واحد من شيوخ المحدثين انتهينا الى أنه لا غرابة في أن تلتقي مادة كتابيهما وتتشابه أحيانا الى درجة التطابق .

كتاب « الإستيعاب » وحركة التأليف حوله

وأما كتاب « الاستيعاب » لابن عبد البر فانه وان كان موضوعه الاساسي هو تراجم صحابة الرسول عليه السلام ، فانه كما رأينا يبدأ بفصول وافية عن حياة النبي وسيرته ، وقد أصبح افتتاح كتب الصحابة بمثل هذه الفصول تقليدا متبعا ، ولهذا يمكن أن تدرج أيضا في المصادر الخاصة بالسيرة النبوية . ويعد كتاب ابن عبد البر مع كتابي « أسد الغابة » لابن الاثير و « الاصابة » لابن حجر العسقلاني من اجل الكتب في هذا الميدان . وما زالت له حتى اليوم ـ على الرغم من تقدم تاليفه ـ مثل هذه المكانة .

وقد اثار هذا الكتاب بجودة تاليفه وحسن استقصائه موجة من الاهتمام بين علماء الاندلس، فاقبلوا عليه بالاختصار والتعليق والاستدراك والتذييل . نذكر من هذه الكتب « استلحاق » محمد بن خلف المعروف بابن فتحون الاوريولي (ت ٥٢٠) وكتابه الاخر الذي نبه فيه على أوهام ابن عبد البر (اي اخطائه) . وقد كان كتاب الاستيعاب يضم تراجم لنحو ٣٥٠٠ من الصحابة، فاستدرك ابن فتحون عليه في تذييله مثل هذا العدد ، ثم اتى أحمد بن محمد بن ميمون

الاشعرى المالقى المعروف بابن السكان فقام بتذييل آخر على استدراك ابن فتحــون . وكان ممن واصل هذا العمل أيضــا المؤرخ محمد بن عبد الواحد الملاحى (نسبة الى ملاحة) : قرية من قرى غرناطة) (ت ٦١٩ هـ .) . وممن قام باختصار كتاب ابن عبد البر أبو العباس أحمد ابن محمد الفهرى الاشبيلى الذى كان حيا فى حدود سنة ٦٠٠ .

ومن أجل المؤلفين الاندلسيين الذين ساروا على درب ابن عبد البر فى جمع تراجم الصحابة عبد الله بن على اللخمى المعروف بالرشــاطى (٤٦٦ ــ ٥٤٢) صاحب كتاب « اقتباس الانوار والتماس الازهار فى انســاب الصــحابة ورواة الاثار » . ومن هذا الكتاب قطعة مخطوطة محفوظة فى خزانة القرويين بفاس . وكان لهذا الكتاب رواج كبير ، فعكف كثير من العلماء على شرحه واختصاره وتذييله والاستدراك عليــه . نذكر من ذلك مختصرا له قام به أبو محمــد عبدالحق بن عبدالرحمن الاشبيلى المعروف بابن الخراط ، ويقول بعض العلماء من هذا المختصر انه أحسن من الاصل ، ومازالت منه نسخة مخطوطة فى مكتبة الازهر الشريف .

السهيلى

ونأتى الى علم من اعظم اعلام الاندلس فى ميدان الكتابة حول السيرة النبوية ، ونعنى به الامام ابا القاسم عبد الرحمن بن الله الخثعمى السهيلى «٥٠٨ ــ ٥٨١» صاحب الكتاب المشهور « الروض الانف » فى شرح سيرة ابن اسحاق بتهذيب ابن هشام . وقد ولد السهيلى فى قرية « ســـهيل » (التى تدعى اليـــوم فونجيرولا) من اعمال مدينة مالقة ، ونشأ فى هذه المدينة ، وفقد البصر صغيرا ، الا أن ذلك لم يحل بينه وبين الاخذ عن شيوخ عصره فى مالقة وقرطبة واشبيليه ، ولازم الفقيــه ابا بكر بن العربى الاشبيلى وابن الرماك النحوى ، وغيرهما ، ثم جلس للاقراء ، وكان محيطا بكل علوم عصره من نحو ولغة وشعر واخبار ، واشتغل بالتاليف ، فكان له ــ فضلا من « الروض الانف » ــ « نتائج الفكر » فى النحو ، و « الفرائض وشرح آية الوصية » فى فقه المواريث و « التعريف والاعلام بما أبهم فى القرآن من الاسماء والاعلام » (وقد طبع هذا الكتاب فى القاهرة سنة ١٣٥٦/ ١٩٣٨) ، واخيرا « أماليه » فى النحو واللغة والحديث ، وقد وقف على نشرها فى سنة ١٣٩٠/ ١٩٧٠ العالم الفاضل محمد ابراهيم البنا .

أما « الروض الانف » فى شرح السيرة فقد بدأ املاءه فى محرم سنة ٥٦٩ ، وفرغ منه فى جمادى الاولى من السنة نفسها . وقد لفت هذا الكتاب اليه نظر الخليفة ، فقد ذكر تلميذه الاندلسى ابن دحية الكلبى أنه حمل نسخة من هذا الكتاب الى حضرة مراكش وأوقف الخليفة يوسف بن عبد المؤمن الموحدى عليه ، فبلغ من اعجابه هذا به أن أمر بأن يحمــل السهيلى من بلده الى حاضرة الدولة حتى يقرىء بها ، وكان ذلك سببا فى الاغداق عليه بعد أن ظل سنوات طويلة يعانى مرارة الفقر فى الاندلس . الا أن السهيلى لم يعمر هناك ، فقد توفى بعد وصوله الى مراكش بثلاث سنوات .

ويشرح الســهيلى منهجه فى تاليف الكتاب فى مقدمته حيث يقول : « وبعد ، فانى انتحيت فى هذا الاملاء بعد استخارة ذى الطول ، والاستعانة بمن له القدرة والحول ، الى ايضاح ماوقع فى سيرة رسول الله « صلى الله عليه وسلم » التى سبق الى تاليفها ابوبكر محمد بن اسحاق المطلبى ولخصها عبد الملك ابن هشام المعافرى المصرى النسابة النحوى مما بلغنى علمه ، ويسر لى فهمه ، من لفظ غريب ، أو اعراب غامض ، أو كلام مستغلق ، او نسب عويص ، أو موضع فقه ينبغى التنبيه عليه ، او خبر ناقص يوجد السبيل الى تتمته » .

ثم يقول مبينا الجهد الذى بذله فى تاليفه :

« لكن تحصل فى هذا الكتاب ، من فوائد العلوم والاداب ، واسماء الرجال والأنساب ، ومن الفقه الباطن اللباب ، وتعليل النحو وصنعة الاعراب ، ماهو مستخرج من نيف على مائة وعشرين ديوانا ، سوى ما انتجه صـــدرى ، ونقحه فكرى ، ونتجه نظرى ، ولقنته عن مشـــيختى من نكت علمية لم اسبق اليها ، ولم ازحم عليها ... مع انى اقللت الفضول ، وشذبت اطراف الاصول » .

والكتاب حقا جدير بهذه العبارات التى يبدو فيها اعتزاز مؤلفه بالجهد المبـــذول ، فقد أتى بالفعل ديوانا حافلا اشبه بموسوعة ضخمة فيها من كل علم حظ ، وهو يدل على رســـوخ قدم السهيلى فى كل ماعالجه من مباحث ، فضـــلا عن كونه كتابا ممتع القــراءة لايكاد يحس مطالعه بالملل . وقد قدرته الاجيال التالية حق قدره ، فأصبحت تعده من المصادر الاولى لكل من يريد متابعة رسولنا الكريم « صلى الله عليه وسلم » .

ابو الربيع الكلاعى

ظلت الســـيرة النبوية الشريفة معينا لاينضب ومصدر الهام لكثير من علماء الاندلس ، ولاسيما عندما اشتدت وطأة الصراع بين الاسلام والمسيحية على أرض الاندلس ، فقد رأى علماء هذه البلاد فى غيرتهم على دينهم ووطنهــم أن يبصروا مواطنيهم بالعبر الجليلة التى يمكن أن يستوحوها من سيرة النبى الكريم وجهاد صحابته ، اذ كان فى ذلك شحذ للهمم المتقاعسة وتقوية للعزائم الخائرة . ولعل من خير نماذج هؤلاء العلماء أبا الربيع سليمان بن موسى بن سالم الكلاعى البلنسى (٥٦٥ ــ ٦٣٤) شيخ علماء شرق الاندلس فى القرن السادس الهجرى .. وكان من ائمة الحديث والفقه والتاريخ والادب ، وله فى كل تلك العلوم انتاج خصب يشهد بتجرده للعلم ، على أنه لم يقصر عمله على هذا الجهد العلمى العظيم ، بل كانت له مشاركة فعالة فى أمور بلده ، فقد ولى الخطبة بالمسجد الجامع ببلنسية وكان دائم السعى فى اصلاح أحوال المسلمين ، واضطلع فى سبيل ذلك بسفارات عديدة جعلت له فى نفوس الشعب الاندلسى مكانة عالية ، وحينما اشتدت وطأة حصار النصارى لبلده بلنسية كان لايفتأ حاثا على الجهاد داعيا الى توحيد الصفوف ، بل انه خرج على رأس عدد من المجاهدين لقتال الاعداء مع أنه كان يناهز السبعين من عمره ، واشترك بنفسه فى معركة ضارية وقعت قريبا من بلنسية فى أنيشة ، فاستشهد فى هذه الموقعة « مقبلا غير مدبر والراية بيده وهو ينادى المنهزمين « أعن الجنة تفــــرون ؟ » وكان ذلك فى شهر ذى الحجة سنة ٦٣٤ . وقد رثاه تلميذه العالم الاندلسى ابن الابار بقصيدة رائعة منها :

سقى الله أشــلاء بسفح انيشة

ســوافح يزجيها ثقال الغمـــائم

وصلى عليها انفسا طاب ذكرها
بطيب انفـــاس الرياح النواســـم
لقد صبروا فيها كراما وصابروا
فلا غرو أن فازوا بصفو المكارم
وما بذلوا الا نفوســـــا نفيسة
تحن الى الاخـرى حنين الروائم

ولابى المطرف بن عميرة وكان من تلاميذه ايضا مرثية أخرى له يقول فيها :

هـــــــــربت الى الله فى موطن
على عاره حصـــــــل الهـــارب
تلقـــاك ربى برضـــــــوانه
وجادلك منه الحيـــــا الساكب
وان الذى نلت من قـــــــربه
لافضـــــل ما يطلب الطـــالب
عليك الســــــــلام الى غاية
من الموت كل لهـــــا ذاهب

وقد خلف لنا هذا العالم المجاهد الشهيد عددا هائلا من المؤلفات من ابرزها كتابه «الاكتفا فى مغازى المصطفى والثلاثة الخلفا » ، وهو كتاب يبدو من عنوانه التركيز على جانب الجهاد فى سبيل الله فى سيرة الرسول الكريم وخلفائه ، واستخلاص العبرة من قدوتهم الحسنة . وقد نشر هذا الكتاب الجليل فى الجزائر بعناية هنرى ماسيه سنة ١٩٣١ ، ثم أعيد طبعه مؤخرا فى القاهرة .

ويحدد أبو الربيع هدفه من هذا التأليف بقوله فى مقدمته : « هذا كتاب ذهبت فيه الى ايقاع الاقناع ، وامتاع النفوس والاسماع ، بالساق الخبر من سيرة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وذكر نسبه ومولده وصفته ومبعثه وكثير من خصائصه واعلام نبوته ومغازيه وايامه من يوم مولده الى أن استأثر الله به وقبض روحه الطيبة اليه ... مقدما لذلك مايجب تقديمه من ذكر أوليته المباركة بلدا ومحتدا بما يحسن علمه وتعليمه » .

والكتاب على اختصاره من أجود كتب السيرة تأليفا وهو يمثل درجة عالية من النضج فى التأليف الاندلسية حول هذا الموضوع . وهو أخيرا بقلم عالم عامل مجاهد بذل حياته فى سبيل قضية الاسلام ، رحمــــه الله وأجزل ثوابه .

ابن ســــــــيد الناس والخزاعى

وتأتى فى النهاية الى اثنين من كتاب السيرة النبوية يمثلان الثقافة الاندلسية فى مهاجرها الى المشرق او الى بلاد الشمال الافريقى ، بعد ان أصبح مقام المسلمين فى الاندلس أمرا يزداد صعوبة يوما بعد يوم ، مما اضطر بعض أهل العلم فيها الى الفرار بدينهم الى أمصار اخرى فى دار الاسلام أكثر أمنا وأقل مخافة .

أما الاول فهو أبو الفتح فتح الدين محمد بن محمد ... بن سيد الناس اليعمرى الاشبيلى ، وربما بدا من التجوز اعتباره أندلسيا ، فقد ولد فى القاهرة سنة ٦٧١ ، وبها تخرج على كبار علمائها ، وولى مشيخة المدرسة الظاهرية بدمشق ، وبين مصر والشام عاش حتى وفاته فى سنة ٧٣٤ . غير أنه ــ شأنه فى ذلك شأن كثير من العلماء الذين انتقل اسلافهم من الاندلس الى بلاد الشرق ــ ظل يحمل فى مهجره الجديد تراث الاندلس والسمات المميزة لثقافة وطنه الاول .

ولابن سيد النـــاس عدد كبير من الكتب فى مختلف علوم العربية ، من أهمها كتابه فى السير النبوية « عيون الاثر فى فنون المغازى والشمائل والسير » و « بشرى اللبيب بذكرى الحبيب » وغير ذلك من المؤلفات . ويذكر صلاح الدين الصفدى انه الف كتاب « عيون الاثر » فى عشرين يوما ، وقد كان اعتماده فى هذا الكتاب على كثير من الاصول الاندلسية ؛ نذكر منها كتب ابن عبد البر ، ولا ســـيما كتـــاب « الدرر » الذى سبق أن تحدثنا عنه الى غير ذلك مما حمله الى المشرق من الاندلس ومن تونس . وكان الامام المصرى تقى الدين بن دقيق العيد يأنس اليه ويحبه ويحيل عليه فى السيرة وتراجم الصحابة ورواة الحديث . وقد نشر كتابه « عيون الاثر » فى القاهرة .

أما الخزاعى فهو ابو الحسن على بن محمد بن مسعود بن أبى غفرة الخزاعى التلمسانى ، وكان من أسرة أندلسية عرفت بالشرف والسيادة ، وهاجر أبوه من الاندلس فاستقر بتلمسان (فى غرب الجزائر) وولى بها الوزارة والقيـــادة والكتابة فى ظل دولة بنى مرين . اما ابو الحسن على فقد ولد فى تلمسان سنة ٧١٠ وأخذ عن الخطيب ابن مرزوق وعن القاضى الاندلسى ابى البركات البلفيقى ، وتولى الكتابة لسلاطين بنى مرين . وتوفى بفاس سنة ٧٨٩ . وكان واسع العلم بالفقه والحديث والكلام . ومن أجل مؤلفاته وأطرفها كتاب « تخريج الدلالات السمعية على ما كان فى عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية » . وهو نوع قريب من الكتابات المتعلقة بالسيرة النبوية ، اذ تتبع فيه المؤلف مختلف مظاهر الحضارة وما يتعلق بهـــا من وظائف وحرف وصنائع على عهد الرسول وعهد الخلفاء الاولين .

وكان هدفه من هذا التاليف هو اثبات ان كثيرا من العمالات (الوظائف) والخطط التى كان يعتقد انها ثمرة لتطور الحضارة الاسلامية فى العصور المتاخرة انما كانت قائمة منذ أيام الرسول وخلفائه الاولين . وقد اتم الخزاعى كتابه سنة ٧٨٦ وقدم للسلطان المرينى ابى فارس موسى بن ابى عنان . ومنه نسخة مخطوطة فى جامع الزيتونة بتونس ، وعلى اساس فصول هذا الكتاب قام العالم المغربى الكبير وشيخ محدثى المغرب عبد الحى الــــكتانى بتاليف كتابه « التراتيب الادارية والعمـــالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التى كانت على عهد تاسيس المدينة الاســــلامية فى المدينة المنورة العلية » .

٢ ــ الاتجاه الوجدانى

عرضنا فى الصفحات الســـابقة للتآليف الاندلسية فى السيرة النبوية ، وهى التى يغلب عليها المنهج التاريخى النقدى والدراسة العلمية

الرصينة . والان لنعرض لنوع آخر من التأليف تناول كتابه جوانب معينة من حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم) أو شمائله ومناقبه نثرا وشعرا . وهذا النوع كان يغلب عليه الطابع الوجدانى المفعم بالايمان والنابع من شعور الاعجاب والحب الذى يتملك نفس المؤمن بشخصية الرسول الكريم .

كتب المناقب النبوية

ولعل من أول التاليف الاندلسية فى هذا الميدان كتاب قاضى الجماعة بقرطبة عبد الرحمن ابن محمد بن عيسى بن فطيس (٣٤٨ – ٤٠٢ هـ): « أعلام النبوة ودلالات الرسالة » . وهو كتاب لم يصل الينا وان كان من الواضح من عنوانه أن صاحبه قد أفرده للحديث عن شمائل النبى والعلائم التى كانت تبشر برسالته . وقد كان أبو عمر بن عبد البر النمرى تلميذا لابن فطيس ، ولابد أنه انتفع منه كثيرا فى كتابيه « الدرر » و « الاستيعاب » .

وللجغرافى اللغوى الكبير ابى عبيد البكرى عبد الله بن عبد العزيز (المتوفى سنة ٤٨٧) كتاب آخر بعنوان « أعلام النبوة » . ولم يصل الينا هذا الكتاب مع الأسف . ولابد أنه كان من خير ما ألف فى الموضوع ، فقد عودنا من هذا المؤلف سعة العلم والاستبلاغ فى التقصى، تشهد بذلك كتبه الاخرى مثل شرحه واستدراكه على أمالى القالى ومعجم ما استعجم وفصل المقال فى شرح أمثال أبى عبيد .

وقد أكثر الاندلسيون من الكتابة حول المعجزات النبوية . نذكر من مؤلفاتهم فى ذلك كتاب المؤرخ المحدث أبى محمد الحسن بن على القطان الذى عاش فى النصف الثانى من القرن السابع الهجرى ، وهو بعنوان « الاحكام لبيان ما لسيدنا محمد عليه السلام من الايات البينات والمعجزات الباهرات والاعلام » ، ومن هذا الكتاب نسخة مخطوطة فى دار الكتب المصرية (رقم ٣١٦ حديث) . ويذكر ابن عبد الملك المراكشى أن أحد تلاميذ ابن القطان ، وهو أبو الحسن على بن محمد الاشبيلى (المتوفى سنة ٦٦٣) قد رجز هذا الكتاب ترجيزا حسنا مستوعب الاغراض .

كتاب « الشفا » للقاضى عياض

على ان أشهر الكتب الاندلسية فى هذا الميدان هو كتاب أبى الفضل عياض بن موسى اليحصبى السبتى « الشفا فى التعريف بحقوق المصطفى » . والقاضى عياض نموذج لوحدة الثقافة المغربية الاندلسية ، فقد ولد فى سبتة (الواقعة فى شمال المغرب على مضيق جبل طارق) سنة ٤٧٦ فى أسرة اندلسية الاصل ، ورحل هو الى الاندلس فدرس على علمائها ، كما كانت له رحلة أيضا الى المشرق ، فجمع علما كثيرا ، ثم عاد الى سبتة فجلس فيها للتدريس ، وولى قضاء بلده للمرابطين فكان محمود الطريقة ، ثم ولى القضاء أيضا بغرناطة ، وعاد بعد ذلك الى قضاء سبتة وشهد نهاية دولة المرابطين على أيدى الموحدين ويظهر ان هواه كان مع المرابطين مما ادى الى تغريبه ووفاته منفيا فى مراكش سنة ٥٤٤هـ ، وقد عد عياض حافظ المغرب وحجته ، حتى أن كثيرا من العلماء أفردوا لترجمته كتبا كاملة مثل كتاب « ازهار الرياض فى اخبار عياض » للمقرى التلمسانى .

اما كتاب « الشفا » فقد وصفه حاجى خليفة – ولم يبعد عن الصواب فى وصفه – بأنه « كتاب جليل عظيم النفع كثير البركة ، لم يؤلف مثله فى الاسلام » . وقد أحصى له من الشروح اكثر من خمسة عشر شرحا أشهرها شرح الشهاب الخفاجى وشرح على القارى المعروف بابن سلطان . وانه حقا لجدير بكل الاهتمام الذى اثاره فى الشرق والغرب على السواء ، فهو من أجود الكتب فى موضوعه تاليفا وأكثرها استقصاء وشمولا ، مع الدقة البالغة والعرض الممتع الذى يشد القارىء شدا من مبدئه الى منتهاه .

والكتاب مقسم الى اربعة اقسام : القسم الاول فى تعظيم الله تعالى لقدر النبى (صلى الله عليه وسلم) قولا وفعلا . وتنتظم فصول هذا القسم ثناءه تعالى عليه وتكميله محاسنه خلقا وخلقا ، وما ورد من صحيح الاخبار بعظيم قدره عند ربه ثم فيما اظهره الله على يديه من المعجزات . والقسم الثانى فيما يجب على الناس من حقوق الرسول : من فرض الايمان به واتباع سنته ولزوم محبته ومناصحته وتعظيم أمره وحكم الصلاة والتسليم عليه . والقسم الثالث فيما يستحيل فى حقه وما يجوز ويمتنع ان يضاف اليه وذلك فى الامور الدينية والاحوال الدنيوية على حد سواء . والقسم الرابع فى وجوه أحكام من تنقصه أو سبه (عليه الصلاة والسلام) .

فن الرسائل الى قبر الرسول (عليه الصلاة والسلام)

ونشير بهذه المناسبة الى فن نثرى أكثر الاندلسيون من الكتابة فيه ، وهو تلك الرسائل التى يوجهها مؤلفوها الى قبر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ابتغاء البركة أو مناجاة خالصة يبثها الكاتب ايمانا نابضا بالحرارة) أو متحدثا عما يضيق به من مشكلاته وأزماته ، وكأنه يلتمس فى مثل هذه المناجاة ضربا من السلو والراحة وهو يتخيل نفسه متوجها بالخطاب الى حضرة الرسول الكريم .

ولعلنا لا نبعد عن الصواب اذا قلنا ان مولد هذا الفن قد ارتبط ببداية ضعف الدولة الاسلامية فى الاندلس ، فقد شعر الاندلسيون وهم يتأملون وطأة الازمة على وطنهم بحاجتهم الى مزيد من الايمان يستلهمونه من هذه المخاطبات النبوية . واقدم ما نعرفه من هذه الرسائل يرجع لذلك الى أواخر عصر الطوائف الذى تمزقت فيه دولة الاسلام واحدقت بها الاخطار من داخل ومن خارج . ويفتتح هذه المخاطبات النبوية الاديب ابو محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسى (٤٤٤ – ٥٢١) الذى يذكر عنه انه كتب رسالة الى قبر النبى

(عليه السلام) ويبعث معها بشعر . وقد نص ابن خير الاشبيلى على أن هذه الرسالة كانت من مروياته . كذلك اشار المؤلف نفسه الى رسالة وجهها الكاتب المعروف محمد بن مسعود بن أبى الخصال الغافقى الشقورى (٤٦٥ – ٥٤٠) الى النبى عليه السلام وقطعة شعر كتبها عن أحد الزمنى (أى المقعدين) فلما وضعت عند قبره برىء المقعد باذن الله وببركة نبيه عليه السلام . وقد كثرت هذه الرسائل فى القرنين السابع والثامن كثرة مفرطة ، ولعل من أهم من خلفوا لنا فى هذا الباب نتاجا أدبيا غزيرا بين شعر ورسائل الكاتب محمد بن محمد المرسى المعروف بابن الجنان ، وهو أديب اندلسى هاجر الى بجاية «فى الجزائر» وتوفى بها فى حدود سنة ٦٥٠ ، وقد احتفظ لنا المقرى فى نفح الطيب برسالة من رسائله يقول فيها : « السلام عليك يا محمد .. سلام من يمد اليك يد الغريق ، ويرجو الانقاذ ببركتك من تكد المضيق ، ويتقطع اسفا ويتنفس صعدا كلما ازدلف اليك فريق ، وعمرت لحوك طريق ... الخ » والرسالة كما نرى تصور ذلك الجو النفسى القلق الذى كان يسود الاندلس حينما الحت عليها المحن ، واصبح مصيرها معلقا بخيط واه يوشك ان ينبت ! ..

ويطول بنا الامر لو تتبعنا هذه الرسائل ، فالمصادر الاندلسية المتاخرة حافلة بها ، وكثير منها يبدو تعبيرا صادقا مفعما بالالم عن مأساة الوطن الاندلسى ، وكانه صرخة الغريق يوشك ان تبتلعه أمواج البحر . ويكفى أن نشير الى رسالتين كتبهما الى قبر الرسول الوزير الاديب الغرناطى لسان الدين بن الخطيب على لسان سلطانى الاندلس أبى الحجاج يوسف النصرى وابنه محمد الغنى بالله ، وفيهما يبسط احوال الاندلس ويتحدث فى تفصيل عن آخر ما وقع بها من أحداث ويعتذر للرسول (عليه السلام) بان تلك الاحوال التى تعانيها بلاده هى التى تمنع أن تشد الى قبره الرحال .

المدائح النبوية

اذا كان الانتاج النثرى للمؤلفين الاندلسيين فى المناقب النبوية على اعظم جانب من الجودة والوفرة فان النتاجهم الشعرى لم يقصر عن ذلك . ولعل اول من استوقفتهم شخصية الرسول الكريم من الاندلسيين هو الاديب المؤلف عبد الملك

ابن حبيب الالبيرى (ت ٢٣٨) الذى رأينا فيه أيضا أول مؤلف اختص السيرة النبوية بالكتابة . فلابن حبيب قصيدة جميلة وصف بها مشاعره وهو واقف على المشاهد النبوية أثناء رحلته للحج :

لله در عصـــابة صاحبتها
نحو المدينة تقطع الفلـــوات

حتى اتينا القبر قبر محمـــد
خص الاله محمـــدا بصـــلاة

خـــير البرية والنبى المصطفى
هادى الورى لطرائق الجنـــات

لما وقفت بقـــبره لســـلامه
جادت دموعى واكف العبـــرات

ورأيت حجـــرته وموضعه الذى
قد كان يدعو فيه للخـــلوات

سقيا لتلك معاهدا شـــاهدتها
وشهدتها بالخطو واللحظـــات

صـــلى الاله على النبى المصطفى
هادى البرية كاشف الغمـــرات

وعلى ضجيعيه الســـلام مرددا
ما لاح نور الحق فى الظلمـــات

وللشعر الاندلسى فى هذه المدائح مسيرة طويلة على طول القرون الثمانية التى كان ظل الاسلام خلالها ممتدا على أرض الاندلس . ولا يتسع المقام هنا لتتبع هذا الانتاج الخصب ، وانما يكفى أن نشير الى قصيدة نظمها الاديب الاندلسى ابن الناصف القرطبى محمد بن عيسى بن اصبغ (ت ٦٢٠) فى ٧٠٠ بيت من الرجز بعنوان « الدرة السنية فى المعالم السنية » والى مجموعة كبيرة من المدائح النبوية لابن الجنان المرسى وغيره من الشعراء الاندلسيين فى آخر كتابه نفح الطيب . وقد جمع احد أدباء المغرب المتأخرين وهو الحسن بن عبد الرحمن .. بن عذرة الانصارى كتابا ضخما فى المدائح النبوية فى أكثر من خمسة وعشرين مجلدا بعنوان « منتهى السول فى مدح الرسول » وكان للاندلسيين والمغاربة من هذه الموسوعة الهائلة نصيب كبير . ويذكر عبد الحى الكتانى فى كتاب « التراتيب الادارية » ان لعثمان بن على قصيدة عارض بها بردة الامام البوصيرى فى مدح النبى عليه الصلاة والسلام تقع فى ١٩٠٠٠ بيت من الشعر على بحر واحد وروى واحد ولسنا نعرف فى الشعر العربى كله قصيدة واحدة بلغت هذا القدر من الطول . وقد اورد الشيخ الكتانى من هذه القصيدة مقتطفات كثيرة .

ويكفى ان نشير الى ديوان كامل البرده للمديح النبوى الشاعر الاندلسى محمد بن جابر الهوارى الوادى آشى (٦٩٦ – ٧٨٠) ، وهو بعنوان « العقدين فى مدح سيد الكونين » ومنه نسخة مخطوطة فى المكتبة التيمورية . وابن جابر هذا هو صاحب قصيدة « الحلة السيرا فى مدح خير الورى » ، وهى معارضة أخرى لبردة البوصيرى وتعرف باسم «بديعية العميان» ، اذ ان صاحبها توخى فيها أن يشمل كل بيت من أبياتها لونا من ألوان البديع ، وقد قام بشرح هذه القصيدة رفيق ابن جابر وصاحبه فى رحلته أبو جعفر الالبيرى . وقد انتشرت هذه القصيدة انتشارا كبيرا فى الشرق والغرب وكانت موضعا لشروح وتعليقات كثيرة .

***

ويبقى بعد ذلك الاتجاه الثالث وهو الروحى الصوفى ، ولكن هذا الاتجاه من الغنى والخصوبة بحيث يستحق وقفة متأنية ودراسة متأملة تأتى فى مناسبة اخرى ان شاء الله .

د. محمود على مكى